الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
﴿ ليالي الأصفهاني في كتاب الأغاني ﴾

الواثق يلحن ويغني (1)

المقدمة الموسيقية...

المقدمة الغنائية...

أبو الفرج: حدّثنا محمد بن عبد الله الخزاعي قال: قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي إنصرفت إلى بغداد بعد لقائي للواثق ومكوثي عنده وأقمت فيها حتى قدم إسحاق بن إبراهيم الطاهري فجئته مسلماً فقال: ويلك يا إسحاق! أتدري ما قال أمير المؤمنين بعد خروجك من عنده؟ قلت: لا أيها الأمير قال: قال لي: ويحك! كنا أغنى الناس عن أن نبعث إسحاق على لحننا فيفسده علينا..

جنان: ما هذا يا أبا محمد؟ هل كنت تباري أمير المؤمنين الواثق بالله في صنع الألحان وتأدية الأصوات؟

إسحاق: الحق يا جنان أنّ رأيي فيه لا يتغير..فالملحن كالشاعر..يسقط في بعض ألحانه ويرتفع في بعضها الآخر الملحنون كالشعراء يتفاوتون في عدد ما يرتفعون ويسقطون به من الألحان والأصوات..

جنان: وأين الواثق منهم؟

إسحاق: هو في مقدمتهم أقسم لك أنّني لا أجامل ولا أبالغ..إنّها الحقيقة عارية من كل الزوائد والأوهام..

جنان: فحدثني إذاً حديثك مع الواثق فيما ارتفع من ألحانه وسقط منها .

إسحاق: كان ذلك يا جنان في يوم رجوت فيه الأمير إسحاق بن إبراهيم الطاهري أن يكلم أمير المؤمنين في حاجة لي فقضيت وفي اليوم التالي ذهبت إلى الأمير الطاهري في قصره..

نقلـــــــة.....

الطاهري: أهلاً بك يا أبا محمد .

إسحاق: هل أتيت في وقت يحلو لك فيه لقائي وتأنس فيه إليّ؟

الطاهري: أنت دائما يا أبا محمد على الرحب والسعة حيث تكون منا .

إسحاق: لقد أتيت أيها الأمير لأرفع إليك شكري وأقول لك عرفاني..

الطاهري: " يضحك " علام يا أبا محمد؟ إنّك قد أعطيتنا ما يبقى ويخلد بعدنا..بينما نعطيك ما يزول ويفنى مع الأيام..

إسحاق: لولا عطاؤك أيها الأمير ما تيسر لي أن أعطي شيئاً .

الطاهري: لا تقل هذال يا أبا محمد..فأنت عندنا في المكانة التي لا يساميك فيها غير القليل من الناس..

إسحاق: أعطاك الله أيها الأمير ما لم تحط به أمنية ولم تبلغه رغبة..

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

الطاهري: ماذا قلت؟ فإنّي أشتهي هذا الكلام! أعده علي..

إسحاق: قلت: أعطاك الله ما لم تحط به أمنية ولم تبلغه رغبة .

الطاهري: " يضحك " حسن..أمنيتي هي رضوان الله في الدنيا ورياض جنته في الآخرة..

إسحاق: وإنّك بها لجدير إن شاء الله..

الطاهري: " فترة صمت " أرجو أن يستجيب الله لدعائك..والآن ماذا عندك مما يحسن الاستماع إليه..

إسحاق: عندي شيء كثير...هل تريد غناء على طريقة الأوائل أم على طريقتنا نحن .

الطاهري: كل طريقة تتخذها جيدة في نظري فاختر ما يحلو لك..

إسحاق: هناك أيها الأمير صوت جيد وله حكاية قصيرة..

الطاهري: قل وأنا سامع..

إسحاق: يروي عن الزبير أنّه قال: كتب ابن أبي مسرة المكي إلى أهل المدينة بيتين من الشعر وهما:

هذا كتاب فتى طالت بليّته

يقول يا مشتكى بثّي و أحزاني

هل تعلمين وراء الحبّ منزلة

تدني إليك فإنّ الحبّ أقصاني

قال الزبير: وكنت غائباً فلما قدمت قال لي أهل المدينة ذلك فقلت لهم: أيكتب إليكم صاحبكم يعاتبكم فلا تجيبونه؟

الطاهري: ولمن هذا الشعر يا أبا محمد؟

إسحاق: إنّه ليعقوب بن إسحاق المخزومي من قصيدة جاء فيها قوله:

قال الوشاة لهندٍ عن تصارمنا

ولست أنسى هوى هندٍ وتنساني

والجدير بالذكر أنّ أمير المؤمنين الواثق بالله قد لحن هذا الصوت فجاء فيه بالجيد الحسن..

الطاهري: فهل صنعت فيه لحناً؟

إسحاق: وتسمعه؟

الطاهري: طبعاً..وماذا عساي أنتظر غير هذا؟

عزف موسيقي..إسحاق يغني..

هذا كتاب فتى طالت بليّته

يقول يا مشتكى بثّى و أحزاني

ما بي سوى الحبّ من هند و إن بخلت

حبّي لهند برى جسمي و أبلاني

هل تعلمين وراء الحبّ منزلة

تدني إليك فإنّ الحبّ أقصاني
قالت نعم قلت ما ذاكم أ سيّدتي
و طاعة الحبّ تنفي كلّ عصيان
قالت فدعنا بلا صرمٍ ولا صلةٍ
ولا صدودٍ ولا في حال هجران
حتى يشك وشاةٌ قد رموك بنا
وأعلنوا بك فينا أي إعلان

الطاهري: " يصفق " أحسنت يا أبا محمد وأجدت..فوالله لا أدري ماذا عسانا نفعل لو لم تكن بين ظهرانينا..بالمناسبة هل تعلم أنّ أمير المؤمنين قد أمرني بإشخاصك إليه في الصوت الذي أمرك بالتغني فيه؟

إسحاق: لقد أعددت هذا الصوت إنّه " لقد بخلت حتى لو أنيّ سألتها " وسيكون اللحن عجباً من العجب..

الطاهري: سأكون رفيقك إلي مجلس الخليفة لأستمع إليه..

إسحاق: هل نتوجه إليه الآن؟

الطاهري: بل بعد صلاة العشاء..

نقلة..حصانان ينطلقان ثم يتوقفان..

جنان: حسن يا أبا محمد..وماذا فعل الله بهذا الصوت الذي كنت تدل به على الآخرين؟

إسحاق: بلغنا يا جنان مجلس أمير المؤمنين فسمعه منّي وأمر لي بمائة ألف درهم..

جنان: ماذا؟ مائة ألف درهم من أجل صوت واحد؟

إسحاق: أي والله يا جنان! والحق أنّه عز عليّ أن أعطي هذا الصوت لواحد من المغنيين الذين كانوا يحضرون مجلس الخليفة..

جنان: وكيف لم يقتبسوه منك؟

إسحاق: ذلك لأنيّ كنت أتلاعب بالحانة فأغير فيها وأبدل في كر مرة أؤديه فيها .

جنان: وأمير المؤمنين ألم يطلب إليك تعليمهم هذا اللحن؟

إسحاق: بلى..وقد كان الحوار بيني وبينه طريفاً حوله..

نقلـــــة.....

الواثق: يبدو لي أنّ أحداً من المغنيين لم يتعلم هذا اللحن منك .

إسحاق: يا أمير المؤمنين ليس أحد من هؤلاء المغنيين يقدر على أن يأخذ هذا الغناء مني .

الواثق: ولم ويحك يا إسحاق؟

إسحاق: لأنيّ لا أصححه ولا تسخو نفسي لهم به..

الواثق: حسن..ولمن ستعطيه؟

إسحاق: لشجا المغنية التي ترتفع في درجتها عن هؤلاء جميعاً..

الواثق: وكيف؟

إسحاق: إنّها تأخذه مني بكفاءة وأطيب به لها نفساً وفي وسعهم من بعد أن يأخذوه منها .

الواثق: إذاً نأمر بأشخاص شجا إليك وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم..

إسحاق: يا أمير المؤمنين أعطاك الله ما لم تحط به أمنية ولم تبلغه رغبة.

الطاهري: ويحك يا إسحاق! تعيد الدعاء لأمير المؤمنين؟ فهل وجدت له شيئاً آخر؟

إسحاق: أي والله أيها الأمير أعيده قاض أنا أو مغن..

نقلـــــة.....

جنان: هذا خليفة فريدة في أخلاقه..لا بد أنّه رقيق الحاشية..طيب النفس كبير القلب .

إسحاق: هو كما تقولين وأكثر..

جنان: وهل سبق له أنّ لحن الصوت الذي غنيته أمامه؟

إسحاق: طبعاً..وكنت سأحدثك حديث اللحن الذي وضعه أمير المؤمنين لصوت " لقد نجلت حتى لو أنيّ سألتها "..

جنان: وما هي جلية هذا اللحن؟

إسحاق: أخبرني الأمير إسحاق بن إبراهيم الطاهري بعد إقامتي في بغداد وقد قدم إليها وجئته مسلما عليه: أنّ أمير المؤمنين قد قال له بعد خروجي من عنده: كنا أغنى الناس عن أن نأتي بإسحاق ونسأله أن يلحن هذا الصوت فقد أفسد علينا لحننا..

جنان: وهل كان الأمر دائماً على هذه الصورة؟

إسحاق: أبداً..لقد اختلفت الصورة بالنسبة لصوت آخر..

نقلـــــة.....

الواثق: ما الجديد الذي أعددته يا إسحاق؟

إسحاق: يا أمير المؤمنين لا أكذبك أنيّ صنعت لحناً في صوت " خليلي عوجاً من صدور الرواحل "..

الواثق: هل تسمعني إياه؟

إسحاق: كما تشاء..

الواثق: " يرفع صوته " هاتو عود أبي محمد " فترة صمت " ثم يبدأ ضرب بالعود ويتوقف شيئاً فشيئاً "..

إسحاق: فكيف رأيته يا أمير المؤمنين؟

الواثق: الحق أنّه أعجبني واستحسنت صحة قسمته..لكنني صنعت لحناً آخر لهذا الصوت نفسه وسأسمعك إياه .

فترة صمت يتردد ضرب آخر بالعود ثم يتوقف شيئاً فشيئاً..

إسحاق: الحقيقة يا أمير المؤمنين أنّك بغضت إلي لحني وسمجته عندي .

الواثق: كلا يا أبا محمد لكل من اللحنين ميزته..فهلا فرقت بينهما؟

إسحاق: نعم يا أمير المؤمنين، أما لحني فهو أجود قسمة وأكثر عملاً وأما لحنك فهو أظرف لأنّك جعلت ردته من نفس قسمته وليس يقدر على آدائه إلا التمكن من نفسه..

أبو الفرج: أخبرني أبو جعفر النديم قال: كان الواثق إذا أراد أن يعرض صنعته على إسحاق نسبها إلى غيره وقال: وقع إلينا صوت قديم من بعض العجائز ما سمعه أحد فكاده مخارق المغني عنده وقال: يا أمير المؤمنين، إنّ إسحاق شيطان خبيث داهية يقول خيراً في لحنك أمامك فإذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك ثم أضاف: وأنا أقيم عليه الدليل إذا حضر.. نقلـــــة...

الواثق: هل تعلم يا إسحاق أنّه قد وقع إلينا صوت قديم من بعض العجائز .

إسحاق: كم يسرني أن أسمع الجديد من الأصوات .

الواثق: تأكد أنّ هذا صوت ما سمعه أحد من قبل وأريد منك أن تأخذ نفسك في ذلك بقول الحق أشد أخذ..

إسحاق: أفعل إن شاء الله يا أمير المؤمنين..

الواثق: " فترة صمت " الآن وقد سمعته فما رأيك فيه؟

إسحاق: صوت هذا المجلس غير صوت المجلس السابق .

الواثق: فما الفرق بينهما؟

إسحاق: الصوت السابق كان فاسداً سيء التقسيم أما صوت اليوم فهو حسن ظريف ولا سيما الردات المختارة فيه..

الواثق: وما هو رأيك فيما لحنته من قول الشاعر:

فإن بخلت فالبخل منها سجية

و إن بذلت أعطت قليلا و أكدت

إسحاق: هذا خير ما سمعت من الأصوات القديمة التي لحنت على طريقة الأوائل .

الواثق: وهل أنت مطمئن إلى حكمك؟

إسحاق: كل الإطمئنان يا أمير المؤمنين..

الواثق: حسن..في وسعك الإنصراف وقد أمرنا لك بخمسين ألف درهم " فترة صمت " ما بك يا مخارق؟ لقد ارتسمت على شفتيك ابتسامة ظاهرة بينا كان إسحاق بن إبراهيم الموصلي يتحدث عن لحني؟

مخارق: أقول وأنا آمن يا أمير المؤمنين؟

الواثق: قل..وأنت آمن .

مخارق: إنّ إسحاق شيطان خبيث داهية .

الواثق: وكيف ذلك؟

مخارق: هل تظنّ يا مولاي أنّ قولك له فيما تصنعه من اللحن: هذا صوت وقع إلينا يخفى عليه أن الصوت لك ومن صنعتك وأنّك لا توقع في فهمه أنّه قديم؟

الواثق: وماذا تعني بذلك يا مخارق؟

مخارق: المسألة واضحة يا مولاي..إنّه يقول لك وبحضرتك ما يقارب هواك فإذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك..

الواثق: " ينفعل " إسمع يا مخارق أنا لا أحب أن أسمع الإتهامات العشوائية أريد على هذا القول منك دليلاً..

مخارق: وأنا مستعد لإقامة هذا الدليل عليه إذا حضر..

الواثق: لكن كيف تقيم عليه الدليل؟

مخارق: هل صنعت لحناً جيداً يصلح للغناء؟

الواثق: طبعاً عندي أكثر من صوت واحد..

مخارق: إذاً إحفظ خيرها وأحسنها ثم أغنيه أمام إسحاق وسترى أنّ موقفه من الصوت حين يعلم أنّه من صنعي غير موقفة حين يعلم أنّه من صنعك.

الواثق: حسن يا مخارق..فإنّي أحب أن أعرف الحقيقة .

أبو الفرج: وعندما حضر إسحاق وجلس في أول مجلس إندفع مخارق يغني لحن الواثق فزاد فيه زوائد أفسدت قسمته فساداً شديداً ولكنّه خفي على الواثق لكثرة زوائد مخارق في غنائه فسأله الواثق عنه فقال إسحاق: هذا غناء فاسد غير مرضي عندي فغضب الواثق وأمر بإسحاق فسحب حتى أخرج من المجلس .

فريدة: ماذا فعلت يا أمير المؤمنين؟

الواثق: في أيّ شيء يا فريدة؟

فريدة: كيف تأمر بإخراج إسحاق من مجلسك وسحبه على الصورة التي تحدث عنها الناس؟

الواثق: أو تريدين أن يخدعني وأصفح عنه؟

فريدة: إسحاق ليس من الرجال الذين يخدعون خليفتهم؟

الواثق: فكيف تفسرين ما حدث إذاً؟

فريدة: لقد قال الحق..وأنت تعلم أنّه يأخذ نفسه بقول الحق في صناعته عن كل حال ساءته أو سرته لا يخاف في ذلك ضرراً ولا يرجو نفعاً وما لك منه عوض .

الواثق: إنّك لم تقنعيني ببراءته مما حدث يا فريدة .

فريدة: حسن..إستدع المغني مخارق..

الواثق: ولم أستدعيه؟

فريدة: لأحاكمه إليك..

الواثق: " دون أن يفهم السبب بعد تردد " حسن..إستدعيه .

مخارق: " فترة صمت " هل أرسلت إليّ يا أمير المؤمنين؟

الواثق: نعم..هناك من يدافع عن إسحاق ويقول: أنّه مظلوم خلافاً لما رأيت وسمعت..

مخارق: أعجب يا أمير المؤمنين لمن يدافع عنه .

الواثق: فما تقول أنت؟

مخارق: وماذا أقول بعد الذي رأيته أنت وسمعته؟

الواثق: صدقت..

مخارق: يا مولاي الذين يدافعون عن إسحاق هم أحد فريقين: فريق جاهل أو فريق يريد الكيد لي .

فريدة: " من بعيد " بل أنت الكاذب الكائد يا مخارق .

الواثق: هذه هي " فريدة " التي تدافع عنه .

مخارق: " يرتبك " وهل تعلمين هذا عني يا سيدتي؟

فريدة: طبعاً..لقد كدت إسحاق عند أمير المؤمنين حين ردت في صدر الصوت من زوائده التي تعرف وتركت المصراع الثاني على حاله فاختل التوازن بينهما وقد تبينت ذلك بنفسي..

مخارق: " يزيد ارتباكه " وهل سمعتني أغني يا سيدتي؟

فريدة: نعم..سمعتك..مدة مدة..وكلمة كلمة..بل همسة همسة..فماذا تقول؟

مخارق: وهل يعارض مثلي مثلك يا سيدتي؟

فريدة: هل تحب يا أمير المؤمنين أن أعرض الصوت نفسه على إسحاق وأغنيه إياه بحضور مخارق وبعيداً عنك حتى لا يقال بأنّه تراجع عن رأيه خوفاً منك؟

الواثق: على أن أراه وأسمعه من حيث لا يراني .

فريدة: كما تشاء يا أمير المؤمنين..

نقلـــــــة.....

إسحاق: سلام الله عليك يا فريدة .

فريدة: وعليك السلام ورحمة الله يا أبا محمد .

إسحاق: هل استأذنت أمير المؤمنين فيّ أو شخاصي إليك؟

فريدة: لا ترع يا أبا محمد..

إسحاق: فإني لا أحب أن يصدر ما يغضبه .

فريدة: لكنك أغضبته .

إسحاق: وهل يغضبه قول الحق؟ إنّه لم يسبق له أن غضب لقول الحق قبل هذا اليوم..

فريدة: إسمع يا أبا محمد..أنا واثقة بأنّ أمير المؤمنين قد غضب لما توهمه من سوء تصرفك..

إسحاق: وأين سوء التصرف؟ هل هو في أخذي نفسي بقول الحق في صناعة لا تحتمل غير قول الحق مذهباً وطريقة؟

فريدة: حسن..لماذا لا تراجع نفسك؟ لعلك أسأت السمع؟

إسحاق: كلا يا فريدة..أنا لم أسيء السمع أبداً لقد أصدرت حكمي في ضوء ما أعلم..

فريدة: فما رأيك في أن أعيد عليك الصوت .

إسحاق: هذا لن يغير من حكمي شيئاً..

فريدة: وماذا تخسر؟

إسحاق: لا شيء..قولي: وأنا سامع لك..

عزف موسيقي..فريدة تغني

ألا قاتلَ الله الحمامةَ غُدْوَةً ... على الغُصْنِ ماذا هَيَّجتْ حين غَنَّتِ

تَغَنَّتْ بصوتٍ أعجميٍّ فهيَّجَتْ ... هوايَ الذي كانت ضلوعي أَجَنَّتِ

فلو قَطَرَتْ عينُ امرئٍ من صبابةٍ ... دماً قَطَرَتْ عيني دماً وألَّمتِ

إذا قلتُ هذي زفرةُ اليومِ قد مَضَتْ ... فمن لي بأُخْرَى في غدٍ قد أطلَّتِ

حلفتُ لها باللهِ ما أمُّ واحدٍ ... إذا ذَكَرَتْهُ آخرَ الليلِ أَنَّتِ

وما وجدُ أعرابيّةٍ قذفَتْ بها ... صُرُوفُ النّوى من حيثُ لم تكُ ظَنَّتِ

بأكثرَ منّي لوعةً غير أنني ... أجمجمُ أحشائي على ما أَجَنَّ تِ

إسحاق: " يصفق " هذا لحن حسن جميل..التقسيم جيد..المدات متوازنة..لا خلل فيها ولا فوضى..إنّه صوت صحيح الصنعة والقسمة والتجزئة..وما هكذا سمعته في المرة الأولى .

فريدة: أرأيت يا أبا محمد كيف تتغير المصائر والظروف..لقد كنت أعلم أنّ مخارقاً هذا قد كاد لك..

إسحاق: أهكذا يا مخارق تعض اليد التي تطعمك؟ أما أنا فلن أكيد لك..بل أتركك لنفسك يأكل بعضك بعضاً إذا بقيت فيك بقية من دين..

الواثق: " فترة صمت " أخرج يا مخارق .

مخارق: أمرك يا أمير المؤمنين..

أبو الفرج: قال إسحاق: ما وصلني أحد من الخلفاء بمثل ما وصلني به الواثق وما كان أحد منهم يكرمني إكرامه لحني:

لعلك إن طالت حياتك أن ترى ... بلادا بها مبدى لليلى ومحضر

فاستعاده مني ليلة كاملة ثم وصلني بثلثمائة ألف درهم..

جنان: هيه: حياتك حافلة بالتجارب يا أبا محمد!

إسحاق: ولا سيما مع أمير المؤمنين الواثق بالله..

جنان: وهل عندك ما ترويه عن فنه في التلحين والغناء وعن علاقته بالمغنيين؟

إسحاق: عندي شيء كثير جداً يا جنان..وبهذه المناسبة أذكر أنّني قدمت عليه في بعض قدماتي فقال لي: ويحك يا إسحاق! أما أشتقت إليّ؟ فقلت: بلى والله يا سيدي! وقلت في ذلك أبياتاً إن أمرتني أنشدتها فأمرني بإنشادها..

جنان: إذاً فالعلاقة بينك وبينه ليست علاقة رعية بخليفة بل علاقة صديق بصديق..

إسحاق: هكذا أصبح الأمر بيني وبينه بمرور الأيام..حتى أنّني كنت أشكو إليه بثي وأحمل إليه مشكلاتي الخاصة بل وأحدثه عن شوقي لأولادي..

جنان: وكيف ذلك يا أبا محمد؟

إسحاق: حدث ذلك وقد كنت ضيفاً عليه في سرّمن رأى فذكرت بغداد والأولاد فقلت شعرا:

أتبكي على بغدادَ وهي قريبةٌ

فكيفَ إذا ما زدَدتَ منها غداً بُعدا

مع أبيات أخرى..فوصلت الأبيات إليه قال لي: يا موصلي لقد اشتقت إلى بغداد! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ولكني اشتقت إلى الصبيان وقد حضرني الآن بيتان:

قال: هاتهما فقلت:

حننت إلى الأصيبية الصّغار

و شاقك منهم قرب المزار

و كلّ مفارق يزداد شوقا

إذا دنت الدّيار من الديار

جنان: وماذا قال لك حينئذ؟

إسحاق: قال لي: يا إسحاق! سر إلى بغداد فأقم شهراً مع صبيانك ثم عد إلينا وقد أمرت لك بمائة ألف درهم..

جنان: هذه حكايات تستحق أن تروى في ليالي الشتاء الطويلة..ثم ألا تقصّ عليّ شيئاً آخر مما تعرفه عنه في صنعته كملحن ومغن؟

إسحاق: بلى..على أن يكون هذا في مجلس آخر إن شاء الله..

موسيقى نهاية..